﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ ذِكْرِ المَحْقِ لأهلِ سبأ، هوّلَ أمْرَه مُبيِّنًا سببَه

لمّا أخبرَ البيانُ القرآنيُّ عن المَحْقِ والتّقتير لأهلِ سبأ في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ بعد ما كانوا فيه من ذلك المُلْكِ الكبير في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾، هوّلَ أمْرَ هذا المَحقِ والتّقتير، وبيّن سببَه فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾: (جزى) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ غَيرِهِ ومُكافَأَتُهُ إيّاهُ[2]، وجزى يجزي جزاءً؛ أيْ: كافأَ بالإحسانِ وبالإساءةِ[3]، فالجزاءُ يكونُ ثَوابًا، ويكونُ عِقابًا[4]، والجزاءُ: الغِناءُ والكِفايةُ[5]، والمعنى المحوريّ له: هو تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِهِ، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ فهو مِنَ الجزاءِ بمعنى المكافأةِ على الشَّيءِ في الخيرِ والشَّرِّ، ويَصدقُ في الثّوابِ والعِقابِ، ومنه: جَزَيْتُهُ حقَّهُ: قضيتُه[6]، ومعنى ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ في الآية: كافأناهم على كفرهم[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سببُ الجزاءِ الفظيعِ لقومِ سبأ مبالغتُهم في الكُفرانِ أو الكُفر

يقولُ اللّهُ تعالى مبيّنًا سببَ ذلك العقاب ومُهوّلًا أمرَه: هذا الذي فعلنا بهؤلاءِ القومِ من سبأ، من إرسالنا عليهم سيلَ العَرِمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(3) الخليل، العين: (جزي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(5) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزأ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 384.

حتّى هلكتْ أموالُهم وخربتْ جنّاتهم، جزاءً منّا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلَنا[1]، وما نجازي هذا الجزاءَ الفظيع - بسلبِ النّعمةِ، ونزولِ النّقمة - إلّا المُبالغَ في الكُفرانِ أو الكُفر[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ عمّا قبله، وهو قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، ولم يربطْ بينهما بعاطف؛ لما بينهما من شبهِ كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ عمّا ذكرته الآيةُ السّابقةُ من العقابِ لأهلِ سبأ، بإرسالِ سيلِ العَرِمِ عليهم حتّى هلكتْ أموالُهم، وخربتْ جنّاتهم، كأنَّه قيل: ما سببُ هذا الجزاءِ الفظيع؟ فقيل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾[3].

استئنافٌ يُبيّنُ سببَ الجزاءِ الفظيعِ لأهلِ سبأ

غرض التّعبير باسم الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

مرجعُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ إمّا مصدرُ قوله: ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾، أو هو ما تَقدَّمَ من التَّبديلِ بجَنَّتَيهم جنَّتين أُخريَين، في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ﴾، ومحلُّه على الأوَّلِ النّصبُ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ للفعل المذكور، وعلى الثّاني النَّصبُ على أنّه مفعولٌ ثانٍ له، والتّقدير على المرجعين: ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاءَ آخرَ، أو ذلك التَّبديل جزيناهم لا غيرَه[4].

في المصدريّةِ تأكيدٌ للجزاءِ، وفي المفعوليّةِ بيانٌ له

ويجوز أنْ يكون اسمُ الإشارة في محلّ رفعٍ بالابتداء، وتكونُ الإشارةُ إلى ما تقدّمَ من قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ ... ﴿مِّن

أيُّ هولٍ أكبرُ من سيلٍ يجرف كلَّ شيءٍ، ويزيلُ النّعمة؟.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.

سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وتكونُ جملةُ ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ خبرَ المبتدأ، والرّابطُ ضميرٌ محذوف، تقديره: جزيناهموه[1]، وقد عبّر باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المتضمّنِ مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ رُتبةِ الجزاءِ في الفَظاعة[2]، وقد استُحضِر الجزاءُ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾، ولم يَقُلْ: جَزَيْناهم جزاءً بما كفروا؛ لِما في التّعبيرِ باسمِ الإشارة من عظَمةِ هولِه[3]؛ أيْ: ذلك الجزاء العظيم العالي الرُّتبة[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدّةِ كفرِهم التي استدعتْ هذا الجزاءَ المَهولَ.

غرض تقديم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمامُ بشدّةِ الجزاءِ وتهويله لفتًا للانتباه إليه

قدّمَ البيانُ الحكيم اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على عاملِها ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾؛ إذ التّقدير: جَزَيْناهم الجزاءَ المُشارَ إليه؛ وذلك للاهتمامِ بشدَّةِ ذلك الجزاءِ وتَعظيمِه[5] وتهويله[6]، ولفتِ الانتباهِ إليه، وأنّه ممّا يهتمُّ غايةَ الاهتمامِ بتعرُّفه[7]، ويمكن أيضًا أنْ يكون للتّخصيص؛ أيْ: ذلك التّبديلَ جزيناهم لا غيرَه، أو ذلك الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم لا جزاءَ آخر[8].

دلالة التّعبير بالمجازاة في قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾:

عقابُ اللهِ لأهلِ سبأ كان مقابلةً ومكافأةً على كفرهم وكفرانهم النّعم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالمجازاة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ عقابَ اللّهِ لأهلِ سبأ كان مقابلةً ومكافأةً على كفرهم وكفرانهم النّعمَ عِوضَ أنْ يشكروها، وأنّ هذا العقابَ كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 484، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 245، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.

معالجةً لإعراضهم؛ لتحصيل الكِفايَةِ من مقابلتهم الإساءةَ بالإساءة، فالمجازاةُ في اللّغة هي المكافأةُ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، وتكونُ بالإحسانِ وبالإساءةِ[1]، كما أنّ الجزاءَ هو تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِه، فأصلُ الجزاء: الغِناءُ والكِفايةُ، أي: تحصيلُ الكِفايَة من المقابلة، إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ[2].

غرضُ إسناد المجازاة إلى ضمير العظَمة:

جـزاءُ العظيمِ سبحانه لا يكونُ إلّا عظيمًا

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ المجازاة إلى ضميرِ العظَمةِ ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾؛ لبيانِ شدّةِ الجزاء؛ أيّ: جزيناهم الجزاءَ العظيمَ العاليَ الرّتبة، بما لنا من العظَمة[3]، فجزاءُ العظيمِ سبحانه لا يكونُ إلّا عظيمًا، وفي هذا من التّخويف ما فيه، وخاصّة لمشركي قريش الذين سيقتْ لهمُ القصّةُ من أجل أنْ يعتبروا.

مرجع ضمير المفعول في ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾:

جـــزاءُ الـلـهِ طـــالَ أهـــلَ سبأ جميعًا؛ لإجماعهم على الكفر

ضميرُ المفعول (هم) في قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ يرجعُ إلى أهلِ سبأ؛ لأنّ القصّةَ عنهم، والضّمائرَ فيها تعودُ إليهم، كقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾، ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم﴾، وقد جاء ضميرُ المفعول مجموعًا؛ للإشارةِ إلى أنّ الجزاءَ طالهم جميعًا؛ لإجماعهم على الكفر ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾، وكذلك توافقًا مع الضّمائر السّابقة، فجميعُها جاءتْ بصيغةِ الجماعة.

معنى (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾:

الـكـفـرُ بـالـلـهِ وبنِعمهِ سببٌ للعقابِ الشّديدِ من الله

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ سببيّةٌ، والمعنى: ذلك الَّذي فعَلْناه بأولئك القَومِ هو جزاءٌ مِنّا لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم[4] النِّعمةَ؛ حيثُ نزعناها منهم، ووضعنا مكانَها ضِدَّها، أو بسببِ كفرهم بالرُّسلِ[5].

(1) الخليل، العين: (جزي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزأ).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزا).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 483.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 245، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.

نوع (ما) ودلالتُها في جملة ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ مصدريّة[1]، والمصدرُ المؤوّل من (ما) والفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ في محلّ جرّ بحرف الجرّ، متعلّقٌ بالفعل جزيناهم[2]، والتّقدير: جزيناهم بكُفرِهم بالرّسل، أو بكفرانهم النّعمة، حيثُ نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضِدَّها[3].

جـــزاءُ أهـلِ سـبـأ كـان بكفرهم الرّسل وبـكُـفـرانـهـم النّعمة

دلالة التّعبير بالكفر في ﴿كَفَرُواْ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ الكفر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ دون غيره؛ لاتّساع دلالته بحيثُ يشملُ تكذيبَ ما جاءَ منْ عنْد اللّه، والجحودَ به، والشّركَ، وسترَ النّعمةِ وتركَ شكرِها[4]، إذ يدورُ معنى الكفر لغةً على السَّتْرِ والتَّغطيةِ والجَحْدِ[5]؛ كما يُطْلَقُ الكُفر في الشّرع على ما يُقابلُ: الإيمانَ، وما يُقابلُ: الشُّكْر[6]، ولو عبّر بأحدِ المعاني السّابقة لاقتصرَ عليها، ولم يشملْ بقيّةَ المعاني، كما أنّ التّعبيرَ بالكفر يدلُّ على مبالغتهم في كفرهم باللّه وبنعمه؛ فقد تنوّعتْ صورُ الكفرِ منهم؛ وهذه الشّدّةُ في الكفرِ تُشيرُ إلى استحقاقهم العذابَ الشّديدَ من اللّهِ العدل، وصياغةُ ﴿كَفَرُواْ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الكفرِ منهم، وليتناسبَ مع فعلِ ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾؛ أيْ: تحقّقَ الجزاءُ عليهم لتحقّقِ وقوعِ الكفرِ منهم.

تـنـوّعُ صـورِ كـفـرِ قـومِ سبأ دلـيـلٌ عـلى استحقاقهم العذابَ الشّديدَ

غرضُ إسناد فعل الكفر إلى ضمير جماعتهم:

أسندَ البيانُ القرآنيُّ الكفرَ إلى ضميرِ جماعتهم في قوله تعالى: ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾؛ للإشارةِ إلى شمولِ الكفر والكفران وشيوعه

اجـتـمـاعُ أهـلِ سبأ على الكفرِ والكفران دليلٌ عـلى بلوغهم غـايـةَ الـعـنـادِ والجحود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(2) بهجت صالح، الإعراب المُفصّل: 9/ 329.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 485.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).
(6) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 516 - 517.

في أهلِ سبأ جميعًا، واجتماعِهم عليه، بما يشيرُ إلى بلوغهم الغايةَ في العنادِ والجُحود، ومِنْ ثَمَّ استحقاقهم هذا الجزاءَ الفظيع.

نُكْتَةُ التّعبير بجملة ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾:

عقابُ اللهِ الشّديد لأهلِ سبأ لوقوعِ الكفرِ والكفرانِ منهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالمصدرِ المؤوّل ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ دون الصّريح في قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾، ولم يقلْ: (بكفرهم)؛ ليُتيحَ صلاحيةَ الكلام لإفادةِ اعتبارٍ من شأنِه أنْ يقوّيَ المعنى، ويزيدَ توكيده، وهو أنّ جزاءَ اللهِ لأهلِ سبأ إنّما كان لتحقّقِ ووقوعِ الكفر والكفران منهم؛ لأنّ المصدرَ المؤوَّل هنا جعلَ الكلام صالحًا لدخولِ الفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ على الجملةِ، بما أعطاها معنى تحقّق الوقوعِ المُستفادِ من الفعل الماضي.

معنى (الواو) ودلالتُها في جملة: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾:

الواو بين معنى الحاليّةِ والتّعليل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ حاليّةٌ، لأنّها تذييلٌ لجملةِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾[1]، والمعنى: جزيناهم ذلك الجزاءَ والحالُ أنّهُ ما يُجازاه إلّا الكَفورُ[2]، أو استئنافية[3] تفيدُ التّعليل[4]؛ لكونها جاءتْ كذلك تذييلًا لما قبلَها[5]؛ والمعنى: جزيناهم ذلك الجزاء؛ لأنّه ما يُجازاه إلّا الكفور.

غرضُ الاستفهام بـ (هل) في ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ﴾:

استفهامٌ إنكاريٌّ ينفي المبالغةَ في الجزاءِ إلّا عن المُبالغِ في الكفر

المعنى الحقيقي للاستفهام هو طلبُ الفهم، وقد خرجَ الاستفهام بالأداة (هل) عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ إلى إشراقٍ دلاليّ هو: الإنكارُ في مَعنى النَّفي، والمعنى لا يحتملُ غيره؛ بسببِ وجودِ الاستثناء المفرَّغ الذي يقترنُ - عادةً -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 620.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(4) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 329.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/ 83.

بالنّفيّ، والنّفيُّ هو الإنكار[1]، والتّقدير: وما نجزي هذا الجزاءَ إلّا المُبالغَ في الكُفرانِ[2].

دلالة التّعبير بالمجازاة ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالمجازاة في قولِه: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾، ولم يَقُلْ: (وهل نجزي)؛ لأنّ الحديثَ عن الكفّار؛ أيْ: استُعملتِ المجازاة في معنى المعاقبة[3]، والمعنى: وهل نُجازي هذا الجزاءَ الذي هو على وجهِ العقاب إلّا الكفور[4]، قال الفرّاء: "المؤمنُ يُجزى ولا يُجازى - كأنّه يشيرُ إلى أنّ عقابَ المسيء هو لأجلِ عمله، فهو مفاعلة، وأمّا ثوابُ المطيع فهو فضلٌ من اللّهِ لا لأجلِ عمله، فإنّ عمله نعمةٌ من اللّه، وذلك لا ينافي المضاعفة"[5]، ولأنّ المجازاةَ مفاعلةٌ، وهي في أكثرِ الأمر تكونُ بين اثنين، يُؤخذُ من كلِّ واحدٍ جزاءً في حقّ الآخر، وفي النّعمةِ لا تكونُ مجازاةً؛ لأنّ اللّهَ تعالى مبتدئٌ بالنّعم[6].

الكفورُ يُجازَى بمثلِ فعلِهِ قَدْرًا بقَدْرٍ، والمؤمنُ جزاؤه بتفضّلٍ وتضعيفٍ

وفي التّعبير بصيغة المبالغة ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ أيضًا مراعاةٌ للعُرفِ في المبالغة في جزاءِ مَن أساءَ بعد الإحسان، وقابلَ الإنعامَ بالكفران؛ فهي من العادةِ المُستقرَّة عند ذوي الهممِ العَوالِ، العريقين في مقارعةِ الأبطال[7]، وفيه مراعاةٌ لعادةِ القرآن؛ إذ أكثرُ ما يُستعملُ الجزاءُ في الخير، والمجازاةُ في الشَّرّ، لكن في تقييدهما قد يقعُ كلٌّ واحدٍ منهما موقعَ الآخر[8].

يُجازَى مَن أساءَ بعد الإحسان، وقابلَ الإنعامَ بالكفران

غرض إسناد فعلِ المُجازاة إلى ضمير العَظَمَة:

إسنادُ فعلِ المجازاة إلى ضميرِ العظَمة في قوله: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا

العظيمُ لا يكونُ جزاؤُه إلّا جزاءً عظيمًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 586، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 677.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 537.

ٱلۡكَفُورَ﴾ يدلّ على عظَمةِ هذا الجزاء والمبالغةِ فيه؛ فالعظيمُ لا يكون جزاؤُه إلّا عظيمًا، وخاصّةً لِمَن يستحقّ هذا الجزاءَ الفظيعَ الشّديدَ المستأصل؛ بسببِ مبالغتهِ في كفرانِ النّعم، أو الكفرِ باللّه ورسوله.

تنوعّ القراءات القرآنيّة في ﴿نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

قرأ الجمهورُ: (يُجازَى إلّا الكَفورُ) بياء الغائبِ والبناءِ للمفعول، ورفعِ الكفور؛ اختصارًا؛ لأنّ هذا الفعلَ لا يكونُ إلّا من اللّه، فالفاعلُ هو اللّهُ وحدَه، لا فاعلَ إلّا اللّه، ولا مجازيَ على الكفرِ غيرُه، وقرأ حمزةُ والكسائيّ وخَلَف ويعقوب وحفصٌ عن عاصم ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ بنون العظَمةِ مع كسرِ الزّاي، ونصبِ الكفور[1]، "على أسلوبِ ما قبله من العظَمة"[2]، والمعنى على القراءتيْن واحدٌ[3]، وكلاهما يُفيدُ العظَمةَ للّه؛ إذ لا فاعلَ على الحقيقةِ إلّا العظيم.

كلّتا القراءتين تُفيدُ العظَمةَ لله؛ إذ لا فاعلَ على الحقيقةِ إلّا العظيم

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أداةُ استثناءٍ مفرّغ[4]، وهو الذي يقترنُ عادةً بالنّفي، ويفيدُ الحصرَ[5]، والمعنى: ما يُجازى ذلك الجزاءَ المستأصلَ إلّا المُبالغَ في الكُفرانِ أو الكفر[6].

جزاءُ الاستئصالِ محصورٌ بالمبالغِ في كفرِهِ باللهِ، أو كُفرانِ نعمهِ

نُكتَةُ التّعبير بصيغة (فعول):

عُبِّرَ بصيغةِ (فعول) في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾، وهي صيغةُ مبالغة، ولم يَقُلْ سبحانه: (الكافر)؛ للدّلالة على شدّةِ كفرهم؛ إذ معنى كفور: شديدُ الكفرِ؛ لأنّهم كانوا لا يعرفونَ اللّه، ويعبدون الشّمس، فهم أسوأُ حالًا من أهلِ الشّرك، وللدّلالةِ على

من رحمةِ اللهِ أن لا يُجازيَ الجزاءَ المستأصِلَ إلّا المبالغَ في الكفر

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 586، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 350.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 288.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 82.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 288، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.

رحمته سبحانه بعباده، فهو سبحانه لا يُجازي منهم إلّاَ الكفور؛ أي: المُصِرّ على الكفرِ المُتمادي فيه[1]؛ أيْ: ما نُجازي هذا الجزاءَ الشديدَ المستأصلَ إلّا عظيمَ الكفرانِ للنّعم، الجُحودَ للفضلِ والمِنن، المبالغَ في ذلك[2]، و(أل) في ﴿ٱلۡكَفُورَ﴾ جنسيّةٌ تُفيدُ العموم، فكلُّ كفورٍ يكافئه اللّهُ مقابلَ عملِه دونَ زيادةٍ أو نقصٍ، بخلافِ المؤمن الذي يتفضّلُ اللّهُ عليه بالمغفرة[3].

بلاغة القَصْر ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

جزاءُ الاستئصالِ مقصورٌ على المبالِغِ في الكُفرانِ أو الكفر

الأسلوبُ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أسلوبُ قصرٍ، ولكن لَمّا سبق قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ تعيّنَ أنَّ المُرادَ: وهل يُجازَى مثلُ جزائهم العظيمِ والمَهولِ في نوعه الشّديدِ المستأصلِ إلّا الكفور؛ أي: المبالغَ في الكفران أو الكفر، ومِن ثَمَّ فلا يتوجّهُ على الحصرِ إشكال[4]، ولا يُتوهّمُ أنّ هذا يقتضي أنّ غيرَ الكفور لا يُجازى على فعله، ولا أنَّ الثّوابَ لا يُسَمّى جزاءً، ولا أنَّ العاصيَ المؤمنَ لا يُجازَى على معصيته؛ لأنّ تلكَ التّوهّماتِ كلّها مندفعةٌ بما في اسمِ الإشارة من بيانِ نوعِ الجزاء، فإنّ الاستئصالَ ونحوَه لا يجري على المؤمنين[5]، ولا يُجازى بجزاءِ الاستئصالِ والإهلاك إلّا مَنْ كفر[6]، و"لأنّه لم يُرِدِ الجزاءَ العامَّ، وإنّما أرادَ الخاصّ وهو العقاب؛ بل لا يجوزُ أنْ يُرادَ العمومُ وليس بموضعه، ألا ترى أنّك لو قلتَ: جزيناهم بما كفروا، وهل يُجازى إلّا الكافر والمؤمن، لم يصحّ ولم يَسُدّ كلامًا"[7]، ويكون الغرضُ من القصرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 173، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12302.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 71.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 385.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 288.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 506.

عدَّ غيرِ جزائهم بالنّسبة إليه عدمًا؛ تهديدًا يصدعُ القلوبَ ويردعُ النّفوسَ، ويدعُ الأعناقَ خاضعةً والرّؤوسَ[1].

بلاغة التّعبير بالتّذييل في ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾:

توكيدٌ وتقريرٌ لمجازاةِ اللهِ لكلّ كفورٍ

قولُه: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ تَذييلٌ؛ إذ إنّه يتضمّنُ المعنى الذي تضمّنته الجملةُ قبلَه، وهذا من مقاماتِ الإطنابِ، وهو يفيدُ التّوكيدَ والتّقريرَ لحقيقةِ ما ذُكرَ من مجازاةِ اللّه للكافرين من أهلِ سبأ بسببِ كفرهم، ويزدادُ به المعنى انشراحًا والمقصدُ اتّضاحًا عند مَن فهمه، ويتّضحُ عند مَن لم يفهمه[2].

أهلُ سبأ مضربُ المَثَلِ في المجازاة بالكفران

وهذا التّذييل يُمكنُ عدُّهُ ممّا جَرى مَجرى الأمثال في الاسْتِقْلالِ وفُشوِّ الاسْتِعْمالِ[3]، ذلك أنّ الجزاءَ عامٌّ لكلّ مكافأة، يُستعملُ تارةً في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإثابة، فلمّا استُعمل في معنى المعاقبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾، بمعنى: (عاقبناهم بكفرهم)، قيل: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾؛ بمعنى: وهل يُعاقَب؛ أيْ: لم يُرِد به الجزاءَ العامَّ هنا؛ وإنَّما أرادَ الخاصّ وهو العقاب[4].

لا يُجازَى بمثل هذا العقاب إلّا الكفور

أو ممّا لم يَخرُجْ مَخرَجَ المَثَلِ؛ لكون الجُملةِ الثّانيةِ مُتوقِّفةً على الأولى في إفادةِ المُرادِ؛ أيْ: وهلْ يُجازَى ذلك الجزاءَ المَخصوصَ المُعجّل بالعقابِ، المهلكِ الشّاملِ للقومِ إلّا من كان كفورًا[5]؟! ومَضمونُ الجُملةِ الأولى أنَّ آلَ سَبأٍ جَزاهم اللّهُ تعالى بكُفرِهم، ومَضمونُ الثّانيةِ أنَّ ذلك العِقابَ المخصوصَ لا يقَعُ إلّا للكَفورِ، وفَرْقٌ بيْنَ قولِنا: جَزيتُه بسَببِ كذا، وبيْنَ قَولِنا: ولا يُجزى ذلك الجزاءَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 484.
(2) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 373.
(3) الحمويّ، خزانة الأدب: 1/ 242.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 576، وابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 176.
(5) الميدانيّ، البلاغة العربيّة: 2/ 87.

إلّا مَن كان بذلك السَّببِ، ولِتَغايُرِهما يصِحُّ أنْ يُجعَلَ الثّاني عِلَّةً للأوَّلِ، ولكنَّ اختلافَ مَفهومِهما لا يُنافي تأكيدَ أحدِهما بالآخَرِ؛ لِلُزومِ معنًى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجازاة والمعاقبة:

المجازاةُ أعمُّ من المعاقبة؛ فالجزاءُ يكونُ ثَوابًا، ويكونُ عِقابًا[2]، والمجازاةُ هي المكافأةُ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، وتكونُ بالإحسانِ وبالإساءةِ[3]، كما أنّ الجزاءَ: تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِهِ، فأصلُ الجزاءِ الغِناءُ والكِفايةُ؛ أيْ: تحصيلُ الكِفايَةِ من المقابلة، إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ[4]، بينما المعاقبةُ والعقابُ والعقوبةُ تختصُّ بالعذابِ[5]، ولا تكونُ إلّا بعد ذنبٍ، وسُمّيَتْ عُقوبَةً لِأَنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ، وأصلُ العقاب يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ[6]، وقد استعملَ البيانُ القرآنيُّ هنا لفظَ المجازاةِ مع أنّ المرادَ بها العقابُ؛ لكونه مكافأةً لهم على كفرهم، وذلك تناسبًا مع حالهم من كُفرانِ النّعم عِوضَ أنْ يشكروها.

المجازاةُ تكونُ ثَوابًا وتكونُ عِقابًا؛ فهي أعمُّ من المعاقبة المُختصّة بالعذابِ

(1) ابن عَبْدِ الحَقِّ، درر الفرائد، ص: 313، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 84.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(3) الخليل، العين: (جزي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جزأ).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جزا).
(5) الراغب، المفردات: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»